منارات

manarat

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة الهدف للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

"22عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"

www.almadasupplements.com

العدد (5987) السنة الثالثة والعشرون - الأربعاء(17) أيلول 2025

سَهير القلماوي

أستاذتي سَهير القلماوي

جـــابــر عـــصــفــور

في الواقع أنا لا أعدُّ سـهير القلماوي أسـتاذة لي فحَسب، تعلمتُ منها النقد الأدبي، خصوصًا في جوانبـه التطبيقية، كمـا تعلمتُ منها أن أقرأ بلغـات أجنبية، لكنّها - فـوق ذلك كلّه- كانت أُمًّا حانية إذا لزم الحنوّ، قاسـية مُتشددة إذا اسـتدعى الموقف الذي يجمع بيننا الشدة أو القسوة.

عرفتُها منـذ أن دخلت قسم اللغة العربية بكلية الآداب، فقد كانت رئيسة القسم في ذلـك الوقت .والطريف أنّني عرفتُ هذه الصفة لها على سبيل السخرية من واحد من كارهيها، والذين عُرفوا بالحقد عليها والغيرة منها في الوقت نفسه . كان الرجـل هو د .محمد كامل جمعة، الـذي كان يُدرّس لنا مادة العَروض والأوزان في السنة الأولى الجامعية، وكان معروفًا بميله إلى الفكاهة والسُخرية .وكان يقوم بتدريس الأوزان الشعريـة وهـو يؤدي حـركات جسدية مصحوبة بإيقاعـات صوتيـة لهـذه الأبحـر أو الأوزان، وكان يحلو لـه أن يُقطّع البيت الشعـرى: كُرَةٌ /ضُربَـت /بصَوالجَةٍ/ فتَلَقّفَها /رَجُلٌ /رَجُلُ.

وهـو من بحر المُتدارَك .وكان ينشـدُ لنا تفاعيل الأبحر في إيقاعات حركية؛ لكي يُدخل إلى أذهاننا الإيقاعات الصوتية للأبحـر العروضيـة .وكنـا نـراه خفيـف الظـلّ إلى أبعـد حـدٍّ، وكان مشهـورًا بيننا بكلمته التـي يردّدها على سبيل الهـزل، وهي أنـه سيدفعنا إلى التفوّق، كـي يجعلنا نحيل كلمات الجرائد إلى أوزان منضبطة الإيقاع .وكنّا نصدقه، فرحـين بهزله .ولكنّـي أذكر أنه وصف قسمنـا) قسم اللغة العربية (ذات مرة بأنه اقسم السيّدةب، وطبعًا ضحكنا من التسميـة مُقلّدين الذين ضحكـوا قبلنا من العارفين بعدائه لسهير القلماوي التي كانت تستخفُّ به، ولم تكن تعدّه من أصحـاب القامات في البحث العلمـي كشوقي ضيف مثلًا، أو عبدالعزيـز الأهـواني .وعندمـا أدركتُ ما الـذي يعنيه حقًّـا بجملة اقسم السيـدةب انتابني الغضـب على الرجل منـذ تلك اللحظة، وتباعدت علاقتي به بسبـب حقده على سهير القلماوي التي لم أكن أعرُفها شخصيًّا، ولكنني كنتُ قد قرأتُ لهـا كتابًا عن المحاكاة، وأدهشنـي الكتاب؛ لما فيه من معـارف تجمع بين علوم الغـرب والشرق، وبهرني في الكتـاب يُسرُ الحركة بـين مذاهب النقـد المختلفة، والتنقل الرشيـق بين علوم العـرب وعلوم الغرب .وكنـتُ قد بدأتُ أعـرف د .القلمـاوي مـن مقالاتهـا التي كانـت تنشرها في أغلب المجلات المعنيّـة بالثقافة والأدب، وقرّبتها إلى قلبي، لُغتها السهلة، وقدرتها التشويقية على الحكي والسرد .

دور "الأداة" في الفنون

وإن أنسـى فلـن أنسـى المقالـة الأولى التـي قرأتُهـا لهـا، وكانـت بعنـوان :الاوكونـب التـي قرأتُها في أحـد أعداد مجـلات الرسالة أو الثقافة في قاعـة الدوريات بدار الكتب القديمـة .وكان المقال مكتوبًا في قالـب حكائي، يحكي عن راهـب يونـانـي اسمه لاوكـون .ويبدو أن هـذا الراهب قد نطـقَ في حـقّ الآلهـة بمـا لا يجوز لـه النطق بـه، فعاقبته الآلهـة، وأرسلت له أفاعي ضخمـة ظلّت تنهش في جسده، معتصـرةً أولاده في الوقـت نفسه، عقابًـا على تجديفه في حـقّ الآلهـة .وحكـت د .القلمـاوي في بقيـة المقـال عن أن أسطـورة الاوكونب قـد خلّدها الفـن الإغريقي في تماثيل عديـدة وفي رسوم شهيرة، مركزهـا الراهب المسكين الذي يصرخُ من الألم وحوله أطفاله الصغار الذين يعانون الألم والعـذاب بدورهم، فيما لا ذنـب لهم فيه .ومضت القلماوي تحكـي في ذلك المقال الجميل عن فيلسـوف ألماني في الفن أخـذ أسطورة الاوكونب هـذه وبنى من فهمه لها ودراسته لدلالاتهـا نظريـةً مهمـةً عـن دور االأداةب في الفنـون واختلافهـا باختلاف هـذه الفنون وخصائصهـا النوعية. وهكـذا اكتشـف هـذا الفيلسوف مـا أسمتـه د .القلماوي، أو مـا أسماه أحـد الشارحـين اللاحقين بـ امكانيـة الرسم والنحتـب؛ وازمكانيـة الشّعـرب، فالرسـم أو النحت هما تصوير آنيٍ في المكان، يقع في برهة من الزمن الآني، وإذا أراد النحّـات أو الرسام أن يُحييَ لنا ما قبل هذه البرهة أو ما بعدها، فإنه يفعل ذلك من خلال ما يثير فينا الخيال الذي يدفعنـا إليـه عن طريـق الإيحـاءات المكانية التـي تفترش اللوحة، أو التي تمتد على فراغها اللوحة.

أمـا الشّعر فلـم يكن فنًّا من هـذه الفنـون المكانية فحسب، وإنّما هو فن زماني ومكاني في الوقت نفسه، فهو قادرٌ من خلال سرده النّظمي على أن يحكي لنا ما حدث في الماضي، وما يظلّ حادثًا في الحاضر، وما سوف يمتدُ في المستقبل.

الشعر فنٌّ زماني مكاني

هكـذا اختلفـت أنـواع الفـنّ باختلاف قـدرة أدواتـه على تجسيـد الزمـان والمـكان، فأصبحـت هناك أنـواع مكانية حيّزهـا المكان كالرسم أو النّحـت أو العمارة .وفي مقابلها أنـواع حيّزها الزمـان كالموسيقـى مثلًا أو مـا يشبهها في الاعتمـاد على حركية الإيقاع وامتـداه المُتغيّر عبر لحظات الزمـن .أمـا اللغـة فظلّت تتميز عـن فنون الزمـان والمكان بأنّهـا تجمع بينهما في أداء وظيفتها؛ ففنون اللغة بما فيها كل أنـواع الأدب، ابتـداء من الشّعر وليـس انتهاء بالقص نقرأهـا بأعيننـا أو نسمع حكاياتها بآذاننـا مُنطلقين معها عـبر الزمـانِ، ومتنقلـين بها عبر المـكان .وهكـذا فهمتُ أن الشعر هو فنٌ زماني مكاني يتميّز عن غيره من أنواع الفن بقدرتـه على أن يتجسّد زمنيًّـا ومكانيًّا في آن، ولا يقتصر علـى الزمان وحده أو المكان وحـده .ولذلك كانت له ميزته الخاصـة التـي يمتاز بها عن غـيره من أنواع الفـن بأداته المتميـزة، وهي اللغة التي تصـل ما بين الزمان والمكان في دلالاتها أو حتى في تعاقـب أصواتها .

ولـن أنسـى فتنتي بذلك المقـال وإعجابي به، فقـد أدخلني بلغـة قصصيـة سهلة إلى واحـدة من أعقـد نظريات الفن، وهـيَ نظريـة :ًاالأداب .ومنـذ ذلكَ اليـوم أحببتُ أن أقرأ لسهـير القلمـاوي قبل أن أعرفهـا، وصرت أتابـع مقالاتها التـي كانت تنشرها في مجـلات المجلة أو الكاتب أو الهلال أو غيرهـا من مجـلات ذلك الزمن البعيـد في الخمسينيات والستينيات، ولذلك استأتُ من المرحوم محمد كامل جمعة عندمـا وصـف قسم اللغـة العربيـة بأنه اقسـم السيدةب، ورغـم ضحكي علـى التكنية المرحـة، لكنني رفضـتُ عقلًا أن تمسّ هـذه السيـدة الفاضلـة التـي كنتُ أراهـا تدخل إلى القسـم محاطة بالمهابة والإجـلال على نحو دفعني إلى الخوف من الاقتراب منها، أو حتى التعرف عليًها.

مذكرات طالب بعثة

ظلّت علاقتـي بالدكتـورة القلمـاوي علاقـة الطالب القارئ برئيسة القسم التي يتابع كتاباتها في كل مكان.

وقـد أسعدني الزمـن حقًا بأن أخبرني بعـض الزملاء أنها سوف تذهب إلى نادي القصة؛ لكي تناقش كتاب د .لويس عوض :امذكـرات طالب بعثة .وقد ذهبـتُ إلى تلك الندوة في النـادي الـذي كان يقع في شـارع القصـر العيني) ولا أعـرف إذا كان موجـودًا أم ذهب به الزمـن كما ذهب بكثير مـن الأشيـاء الجميلـة .(ومـا بهـرني في مناقشتهـا كتابً لويـس عوض أنّها كانت تناقشه بثقة وحسم وفي نوع من التعنيـف والزّجـر في الوقت نفسـه ً.وكان عَوض فيً ذلك الوقت عَلمًـا من أعلام الثقافة العربيـة، ونجمًا ساطعًا من نجومها .وما كنتُ أظنّ أن أحدًا يستطيع أن يخاطبه بنوع ذلـك الخطاب الذي كانـت تخاطبه به أستاذتـي التي بدأتُ أفخر بأنها رئيسة قسمي منذ ذلك الوقت .

ومـرّت الأيـام وعرفنـا أن د .شكـري عيّـاد الـذي كان من المفترض أن يُدرّس لنـا مـادة النقـد العربـي القـديم قد ذهـب ليعمل مستشـارًا ثقافيًّا لمصر في أحـد بلدان أمريكا اللاتينيـة، وهـو الأمـر الـذي اقتضـى أن تحـلّ محلّه في تدريـس مادته، د .القلماوي، التـي كنّا نعرف أنها مختصة في النقـد العربي الحديث .وفرحتُ في داخلي بأنها جاءت للتدريـس لنا في الفرقـة الثالثـة – أعني مـا يقرب من سنة – ١٩٦٣إن لم تُخنّي الذاكرة .وبدأت د .القلمـاوي تقرأ معنا كتاب المرحـوم محمد مندور، الذي كان حيًّا يملأ الدنيا حيوية ونشاطًا في ذلك الوقت، قبل أن يرحل عن دنيانا عام ١٩٦٥.

القلماوي ومندور

لم تكـن د .القلمـاوي تعتمـد علـى كتـاب منـدور بوصفـه كتابًـا مُقـرّرًا أو حتى كتابًا مُعتمدًا، وإنمـا بوصفه مرجعًا مـن المراجع التـي كانت تحـبّ أن نقرأهـا، وأن نتابع فيها إستكمـال ما كانـت تقوله لنـا في المحاضـرات، لكنّي كنتُ ألاحـظ نوعًا من القرب بين أفكارهـا وأفكار مندور .وكنتُ أردُّ ذلـك التقـارب إلى أن كليهما درس في فرنسا ونهل من المنابع الثقافية نفسها .

ومـرّ العام في يُسـر وسلاسة وسهولـة إلى أن وصلنا إلى السنـة الرابعة، وأَخَذت تدرّس لنـا النقْد العربي الحديث. وهنـا فتحت سهير القلماوي آذاننـا وعقولنا على نظريات واتجاهـات لم نكـن نسمع عنها مـن قبـل، وبفضلها عرفنا للمرّة الأولى أسماء نقاد كبار من الغرب على وجه التحديد لم نكـن نسمع عنهم من قَبـل .هكذا عرفنا :ت .إس .إليوت، وآي .إيه .ريتشـاردز، ومدرسة النقد الجديد ما بين أوربا وأمريكا، وغير ذلك من المذاهب النقدية.

وكنـتُ أشعر من خـلال محاضرات د .القلمـاوي في النقد الحديـث أنهـا مُنحـازة – ربمـا بسبـب دراستهـا – إلى النظريات الغربيـة الرأسمالية، ولم تكـن متقبّلة للواقعية الاشتراكيـة التي كنّا قد بدأنا نسمـع عنها ونقرأ لأعلامها، وعلـى رأسهم مكسيم جوركـي في روايته الرائعة االأمب. وأذكـر أنني كنـتُ أريد أن أناقشها في قيمـة هذه الرواية، ولكنّـي خفـتُ وشعـرتُ بالخجـل، فقـد كان مـن طبعـي أن أسكـت في محاضـرات الأساتـذة، وأن أحـرص علـى استيعـاب كلّ ما يقولـون إلى أن أنضج بما يكفي لأن أصل إلى المرتبـة العلمية التـي تضعني في المكانـة التي تسمح لي بمناقشتهـم .ولهذا مرّ العام الرابـع دون أن تعرفني د. القلمـاوي أو حتـى تسمـع عنّي، مـع أني كنـتُ الأوّل على أبناء فصلي أو دُفعتي، كما كُنا نقول في تلك الأيام البعيدة.

ممتاز مع مرتبة الشرف

مرّت الأيام وتخرّجنا بالكلية، ولاحظت د .القلماوي – فيما حَكـت لي – أنهـا أعطت الدرجة النهائيـة لطالب من طلابها في النقـد الأدبـي الحديث، وأنّهـا حاولـت أنً تتذكر وجه ذلـك الطالب أو حتى حواراتـه معها فلم تخرج بطائل؛ ذلك لأنّ الطالـب الذي كنْتُهُ كان صمـوتًا لا يميل إلى النقاش أو الجـدال، وإنّما إلى الإنصـات والتزود من العلم فحسـب. ولم تعـرف القلماوي ذلك الطالب الـذي بهرها – فيما قالت لي بعد ذلك، رحمة الله عليها – كي تتحمّس له وقت التعيين مُعيدًا .ولسـوء الحـظ لم تعد هـي في ذلك الوقت رئيسـة للقسم، وكان رئيس القسـم زميلهـا أو نقيضهـا الفكري، د .شوقـي ضيـف .وكان كلاهمـا علـى خلاف حـول تعيين مُعيدين قدامـى، سبق لهم التخرُج قبلي بسنوات معدودة، ولهـذا انشغل القسم بموضوع العراك، ونسـي طالبًا من طلابـه تخـرّج بدرجة ممتاز مع مرتبة الشـرف – وهـو أمرٌ لم يحـدث منذ خمسة عشر عامًا على الأقل – ونسي القسم أن يطلـب تكليف هذا الطالب بأن يكـون معيدًا فيه، وتركه ليواجـه بعد التخرّج مشكلات العمل والوظيفة، بعيدًا عن الرعايـة أو عـون الأساتـذة، أو حتى مساعداتهـم، ولذلك وجـدتُ نفسي مُتخرجًا من القسم، لكـن وجدتني مَحرومًا مـن أن أذهـب إلى اعيد العلمـب، وأتولى تحيـة الرئيس عبدالناصر العظيـم الـذي كنتُ أحبّـه كل الحـب، وأشعر أنه لولاه مـا دخلتُ الجامعة المصرية، ومـا أصبح التعليم مجانيًّـا، يتيـح لأمثالي من أبنـاء الفقـراء أن يتعلموا وأن يتفوّقـوا، وأن يكونـوا الأوائـل علـى أقسامهـم، وكان الإحباط قرين الفرحة بالتخرج في آن.

شكوايَ إلى عبدالناصر

الغريـب أنني لم أذهب إلى مقابلـة د .القلماوي، وأستعين بنفوذهـا، أو حتى أطلـب منها العون كي أكـونَ مُعيدًا في قسم اللغـة العربيـة، وأكد هـذا الموقف في ذهنـي أنّها لم تسأل عني ولم تَسْعَ إلى التعرّف إليّ، رغم إعجابها الشديد بأوراقـي ودرجاتـي في الامتحانـات النهائيـة .قـد يكون خجلـي في ذلك الوقت هـو المسؤول، وقد تكـون مشاغلها أنستهـا أن تمضـي في البحـث عنّـي كي تجـدني .وكانت النتيجة أنّني أصبحت مُعلمًا في إحدى المدارس الإعدادية في قريـة صغيـرة بمحافظة الفيوم هي قريـة طُبْهار، التي لا أزال أذكرهـا بنوع من الحنوّ والأسـى في آن .وبالطبع كان لا بُدّ أن أحضر مُحاضرات الدراسات العليا حتى أتابع دراسـتي للحصول على الماجستير والدكتوراة .وحاولتُ أن أقابل رئيس الجامعة ولكنّي فشلتُ .ومرت الأيام.

وعندمـا عُـدتُ مـن قريـة طُبْهـار إلى القاهـرة في إحـدى الإجازات، عرفتُ أن رئيس الجامعـة – آنذاك – طلب رؤيتي بإلحـاح، فذهبـتُ للقائـه مُتصـورًا أن د .سهيـر قـد عرفت بالأمـر، وساءها الظلم الذي وقع علـيّ، فقررت أن تتدخّل، لكـنّ الأمر لم يكن على هذا النحو، فقد تبيّن لي أن الشكوى التـي أرسلتُهـا إلى عبدالناصـر – كما حكيتُ عن ذلك من قبل –قد وصلت إليه، وقلبت الجامعة رأسًا على عقب، وبعدها أصبحتُ معيدًا في الجامعة بقسم اللغة العربية الذي كانت د .القلمـاوي لا تزال رئيسة له، وعندمـا ذهبتُ لكي أقابلها ورأت وجهـي تذكّرت أنني الشاب الـذي كانت تبحث عنه، والـذي لم تستطع أن تعثـر عليه وتتعـرف إليه، كي تدافع عن تعيينه في الجامعة.

آخر العنقود

كانـت أولى كلماتهـا لي :اسامحكَ الله، لقـد جعلتني أشعر بالنـدم والحـزن لأولِ مرة منـذ أن بـدأتُ التدريـس، فأنا متعـوّدة أن أتذكـر كل طلّابـي النابهـين والمتفوقين، وأنت كنـتَ حريصًا كل الحرص على ألّا أعرفك وعلى ألا تعرفني ولا تقـترب منّيب .ولـن أنسـى حفاوتها الشديـدة بي في تلـك الدقائـق التي شعرت فيهـا بفرحة عودتـي إلى القسم وتعييني مُعيدًا فيه بفضل عبدالناصر، لا بفضلها هي.

ومـرّت الأيـام وازددتُ معرفـةً بهـا، وازدادت هـي قُربًـا منـي .وأصبحـت تعاملني على أنني اآخـر العنقودب، فقد كنـتُ بالفعل آخـر أبنائها الذين عملـوا مُعيدين في القسم، وذلـك في السلسلـة التـي سبقنـي فيهـا عبدالمنعم تليمة، وعبدالمحسن طـه بـدر، ونبيلة إبراهيم، رحمـة الله عليهم جميعًـا .وبـدأتُ أختـار موضوعًـا لنيل درجة الماجستير مـع د .القلماوي .وكنتُ ميّالًا ومشدودًا بقـوة إلى دراسة الجوانـب الجمالية أو الخصائص النوعيـة لـكلّ فن من فنـون الأدب .وكنتُ قد نشرتُ قبل ذلك بأشهر مقالًا شهيرًا عن تحـوّلات الوزن والإيقاع في شعر صلاح عبدالصبور. وأحـدث هذا المقال تأثيرًا طيبًا في الحيـاة الثقافية وقتها، وكان لـه صدى إيجابي عندهـا .ولا أزال أذكر أنها انفردت بـي بعد نشر ذلك المقـال، وسألتني :اهل تريـد جعل المقال موضوعًـا للماجستيـر؟ب، فقلتُ لهـا :اإننـي أريـد أن أدرس موسيقـى الشعـر الحديثة بوجه عـام، مثل الإيقاع والصـورة الفنيّـةب، فقالـت لي :اأمّا الإيقاع فـلا أنصحك بـه؛ لأنّ دراسته ستتطلب سنين في الموسيقى على مستوى التخصص، كما تتطلّب سنة أو سنتين في الأصوات بعلوم اللغة، والإفادة من التجارب الصوتية في معامل الأصوات، وهـذا كلّه يحتـاج إلى سنوات وسنـوات .ولا أظنّ أن هذه السنـوات تلزم لمجرد دراسة في الماجستيرب .قلتُ لها :اما العمـل إذن؟ب .فقالـت لي :اترك موسيقى الشعـر مؤقتًا، واذهـب إلى الصـورة الفنية، فدراستهـا لا تتطلب كل هذه التخصصـات التـي ذكرتُها لـك .وهي الموازي الـذي يؤكّد الخاصيـة النوعيـة للشعـر إلى جانب الـوزن والإيقاعب. فاقتنعـتُ، وقالـت لي :اإن شابًـا من زملائـك قد كتب تحت إشـرافي رسالـة دكتـوراة عن تطـوّر الصـورة الفنية في الشعـر الحديث ابتداء مـن البارودي وانتهـاء بأدونيس، ولا بأس لـو درستَ أنت المرحلـة الأولى من مراحل تطوّر الصورة الشعرية على نحـو مختلف ومدقّق بالطريقة التي أتصوّرك سوف تقوم بهابً.

الصورة الفنيّة

علـى هذا الأساس بـدأتُ أقْبَـلُ موضوع الصـورة الفنيّة. ولم يكـن هناك في العـالم العربي كلّه كتـاب واحد مكتوب في هـذا الموضـوع إلّا كتاب المرحوم مصطفـى ناصف عن الصـورة الأدبيـة؛ ولذلـك وجدتُ نفسـي مُضطـرًا إلى أن أزيـد مـن إتقاني للغـة الإنجليزية، وأن أقـرأ عن الصورة الشعريـة في الكتب الإنجليزيـة المُخصصة لهـا .ولا أزال أذكـر أن الكتـاب الأول كان بعنـوان االصـورة الشعريةب للناقـد الإنجليزي سيسل داي لويس، وقـرأتُ هذا الكتاب واستوعبتـه استيعابًـا كامـلًا، ونشـرت مقـالًا تفصيليًّـا عنـه بمجلـة المجلة في ذلك الوقت خـلال مارس .١٩٦٨

وعندمـا بـدأتُ في دراسـة المـادة العربيـة اقتصـرت على شعـراء الإحياء في مصر والعـالم العربي، وذلك في ضـوء الخصائـص الفنيـة للصـورة الفنية كما عرفتها من النقد الأدبـي .لكنّـي لم أجد هذه الخصائـص في المادة الخاصة بشعـر الإحياء، فكان لا بدّ من تغيير المنهج، وتشكيل منهج يتناسـب وطبيعة الصـورة الإحيائيـة التقليدية في أغلب أحوالها .وقلتُ لنفسي بعد أن قرأتُ كتاب مصطفى ناصف –وقبـل أن أقرأ كتاب سيسـل داي لويس كاملا :– إنني لا بدّ أن أكتـب مقدّمة؛ لأوضح فيها مفهوم الصورة الشعرية في النقـد العربى القديم، وفي النقد العربى الحديث، وفي النقد الأوربي على السواءب .

وبالفعل انتهيت من ذلك الفصل التمهيدي في أقلّ من شهر، وذهبـتُ بـه إلى أستاذتي، وكانت قد تركـت رئاسة القسم، وتوّلـت رئاسة الهيئة المصرية العامة للكتاب، فقابلتني في مكتبهـا بالهيئة وأخذت منّـي الفصل وقالت لي :امُر علـيّ بعـد أسبوع بعـد أن أقـرأه؛ لأقول لك رأيـيب .وتركتُ لها الفصل وخرجـت من عندها مليئًا بالتخيُـلات المفرحة ظنًا منّـي أن كل فصل مـن فصول الرسالة سيأخـذ منّي شهرًا، وبذلـك سأنتهـيَ مـن الرسالة كلّهـا في أقلّ من عـام .ولكن كانت النتيجة على النقيض من ذلك تمامًا .وقد سبق لي أن حكيتُ تلك القصة في مقالٍ سابق.

درسٌ لا يُنسى

المُهـم أنني عدتُ إليها بعد أسبـوع، فوجدتها جهمة الوَجه، غاضبـة علـى مـا لا أدري، وأخرجـت مـن مكتبهـا ورقتين بحجـم االفلوسكابب مليئتـين بكتابة باللغـة الإنجليزية. وقالت لي :اهـذه مراجع في موضوع الصـورة الشعرية، أرجـو أن تقرأهـا جميعًا وألّا تعـود إليّ إلّا بعـد أن تكون قـد قرأتهـا واستوعبتهـا تمامًاب .وقالت لي ذلك بلهجة لا تتحمّـل المُراجعـة أو حتـى السـؤال .وقالـت لي في نهايَة المقابلـة :ااذهـب إلى الأستـاذة) سـين (في مكتبةِ الجامعة الأمريكيـة، وأخبرهـا أنّـك تلميـذ لي، وأنّنـي أريـدك أن تستعين بها للاطلاع على هذه المصادر والمراجعب.

وبالفعـل ذهبـتُ إلى الجامعـة الأمريكيـة، وتعرفـتُ إلى السيدة التي طلبت منّي التعرف إليها وقضيتُ سنة كاملة، بـل ربّمـا أكثر، لا أفعل شيئًا إلّا قراءة تلك الكتب، وتحسين إنجليزيتـي؛ كـي ترقَى لمستـوى تلك الكتب حتـى أفهمها. ولحُسـن الحـظ كان الكتـاب الأول هو كتـاب سيسل داي لويس الذي كنتُ قد قرأتُه بالفعل، فانطلقت منه إلى غيره. ومن المصادفات السعيدة أنّها كتبت لي عن عنوان بحث في مجلة علم الجمال والنقد الأدبي .وكان ذلك البحث بعنوان: االصورة الفنّية من الإحساس إلى الرمزب .ولحُسن الحظ أيضًـا كان هـذا البحـث هو بمنزلـة خريطة لـكلّ مجالات الصـورة الفنية؛ سواء في الدراسـات النفسية أو اللغوية أو الأنثروبولوجيـة .وفرحت جدًّا بهـذا البحث إلى درجة أنّنـي ترجمتُه كاملا) وأذكر أنّنـي نشـرتُ تلك الترجمة في مجلة اتحاد الكُتّاب العراقية في أوائل السبعينيات.(

منهج جديد

بـدأت الأمـور تتفتـح تدريجيًّـا أمامي، وكنـتُ أعرف أنّني اخـترتُ موضوعًـا متشعّـب الاتجاهات، تناوشه وتتعاوره مناهج عديدة ومدارس متنوعة، وله تاريخ هائل من البحث في الآداب الأوربية .وكل هذا وضعني أمـام السؤال :اما قيمة المُقدمـة البائسة التـي كتبتُها وعرضتُهـا علـى د .القلمـاوي؟ب وكان أكثـر مـن عام قـد مضى، وكلمـا قابلتُها في القسم عندمـا تأتي لإلقاء محاضرتها، وكانـت تراني كان وجهها يتجهّم بجدية شديدة، وتسألني :اماذا فعلتَ في الكتب التي أعطيتُها لـك؟ب فأجيبهـا :اإنّني أقرأ فيها ولا أفعـل شيئًا سوى ذلكب، فتهـزّ رأسها جادة جدًّا وتقـول لي :ااستمر إلى أن تنتهيب.

وهكـذا مضى العـام وأكثـر وأنا ماضٍ في قـراءة تلك الكتب .ولحُسـن الحـظ كان الكثير منهًا مقالات، ولذلك انتهـى العام ومعـه أشهر عـدة وقد انتهيت مـن المهمّة التـي كلّفتنـي بهـا .وبـدأتُ أسـأل نفسي :اهـل أكتب مقدمـة أحاكي فيها مـا كتبه نورمـان فريدمان صاحب بحـث :االصـورة الفنية مـن الإحسـاس إلى الرمزب، أم أستغنـي عـن المقدمـة تمامًـا أو المدخـل، وأتنـاول الموضوع مباشرة، مُستنبطًا في ذهني منهجًا يتناسب مـع طبيعة الموضوع الـذي أدرسه، وهـو الصورة في شعـر الإحيـاء الـذي هو في حقيقته إعـادة بعث للشعر العربـي القـديمـ؟ب وهكـذا انتهيـتُ إلى تـرك المقدمـة والتّخلـي عنهـا، واستنبطتُ منهجًا جديـدًا ينطلق من طبيعة المـادة نفسها .وهي مفاهيم الصورة في التراث العربـي، امتـدادًا إلى عصر الإحياء نظريًّـا وتطبيقيًّا، وقبـل أن أكتـب أيّـة كلمة طلبـتُ مقابلتهـا، فأذنت لي،

وعندمـا جلسـتُ أمامها وجـدتُ وجهها قد صـار أقربَ إلى الابتسـام، واسترجـع ملامـح حنوّ الأستـاذة الأم على التلميذ الابن، وفتحت الدرج الذي كان فيه الفصل الـذي كتبتُـهُ وقدّمته لي قائلة :ابعد أن قـرأتَ ما طلبتُهُ منـكَ، قُـلْ لي رأيك في هـذا الذي كتبتَـهُ؟!ب .فقلت لها: اكلام فـارغ يستحق التمزيقب .فـردّت عليّ فورًا :اإذن مزّقـه أماميـب .وقد فعلتُ ذلـك غير نادم، بـل فرحُ كما لو كنتُ قـد تخلّصتُ من إثم جريمـة ارتكَبتُها في حالة غيـاب وعي، ونظرتُ إليهـا فإذا بهاً تبتسـمُ ابتسامتها التـي عهدتها فيها، وقالـت لي :ابعد هذا الدرس، اذهب إلى المنـزل، وابـدأ العمـل في كتابـة الرسالـة بعـد أن تعلّمت ما لم أعُد أخشى عليك من الوقوع فيهب .

هجوم ودفاع

بالفعـل ذهبتُ إلى المنزل بعـد أن تعلّمـتُ أقسـى درس منهجـي في حياتي، وانتهيت من أطروحة الماجستير التًي سرعان ما ناقشتُها، والتِي تولّت الدفاع عنّي فيها أستاذتي القلمـاوي ضد هجـوم أستاذي شكري عيّـاد الذي اتهمني بالتعصُّب والدخول بأحكام مُسبقة على شعراء الإحياء.

وبعـد ذلك بـدأت مرحلة الدكتـوراة، فاخترتُ مـا اكتشفتُه من قبـل، وهو أنه ليـس عندنا دراسة منهجيـة عن مفهوم الصورة الفنيّة في التراث النقدي والبلاغي .وما إن قدمتُ إليهـا مشروع الدكتوراة وقرأته حتيٍ وافقت فورًا، مؤكّدة أهميّة الموضوع .ولم أطلب منها شيئًا سوى ألّا تتعجلني، وغرقـتُ في الكتب والمراجع والمصادر العربية والأجنبية، وقضيـتُ خمس سنوات تقريبًا لا هَـمّ لي إلّا العمل في ذلك الموضـوع، إلى أن انتهيتُ من الدكتـوراة التي اشترك في مناقشتـي فيها مع أستاذتي القلمـاوي كلّ من د .عبدالقادر القـط ود .حسـين نصـار، يرحمهمـا اللـه .وبـدلًا مـن أن تناقشني د .القلمـاوي بعد مناقشة العضوين، انطلقت في الثنـاء على جدّيتي في البحث، وانتهت المناقشة بحصولي على الدرجِة بأعلى الدرجـات العلمية .وكانت المناقشة في ذاتها حدثًا في الحياة الثقافية والأدبية.

والمؤكـد أنّ عملـي طوال تلـك السنوات قد قـارب ما بينيٍ وبـين أستاذتـي إلى أبعد حدّ .وشيئًا فشيئًـا أصبحتُ ابنًا لهـا لا تلميذًا فحسـب .وكانً مـن الطبيعـي، والأمر كذلك، أن أذهـب إليها كي أستـأذن في اختيار زوجتي، رحمة الله عليها؛ لأنّها كانت تلميذة لها مثلي .

الحفيدة سهير عصفور

وعندمـا أنجبنـا طفلتنـا الأولى أطلقنا عليهـا اسم سهير، تَيمُّنًـا بالمـرأة التـي تنـزل منزلـة الجـدّة للمولـدة، والأمّ بالنسبة للأبوين .وأذكـر فرحتها وهي تتلقّى ابنتي سهير بين ذراعيها وتُقبّلها وتمنحها كأسًا مُزخرفًا من الفضة؛ كي يكـون تميمة لهـا في حياتها .وواصلت الحفيـدة الدراسة إلى أن حصلـت على درجة الدكتـوراة في الأدب الإسباني، وأصبحت أستـاذة جامعية مثل جدّتها، وسرعان ما لحقت الحفيـدة بها، عندمـا توفّاها اللـه تاركةً في قلبـي حُزنًا لا تزال لـه بقاياه .أمـا أستاذتي سهير فقد ظلّـت علاقتي بها وثيقـة أرعاها وأقدّم لها فروض المحبة والوفاء والتكريم، فقـد شـاءت الأقـدار أن أتـولّى مناصب رفيعـة في وزارة الثقافة التي أنشأها ثروت عكاشة سنة ١٩٥٨، وعملت هي معه مؤسّسة معرض القاهـرة الدولي للكتاب سنة .١٩٦٩ وعندما توفيت، يرحمها اللـه، سنة ١٩٩٧، لم أنسَ فضلَها علـيّ، وأقمنا لهـا ما يُكرّمها ويؤكد مكانتهـا التي ظلّت بعد موتها إلى اليوم.

الطريـف أنّني عندمـا كنتُ أكتب هذا المقـال كانت تردُ على ذهنـي مجموعـة لا تُنسى مـن ذكرياتـي معها، أذكـرُ منها أنها حصلت على درجـة الماجستير سنة ١٩٣٧، وأن إدارة الجامعة اضطرت إلى مناقشتها في أحد المدرجات البعيدة حتـى لا تحـدُث تظاهرات مـن الطلبـة المعارضـين لتعليم المـرأة .أمـا الدكتوراة فقد كانـت تكتب أغلبهـا في فرنسا، حيث أرسلها أستاذها طه حسين لكي تستفيد من الدراسات العالميـة عن األـف ليلة وليلـةب .وما أكـثر الذكريات التي كانـت تجمعني بهـا، فكثيرًا مـا كانت تقصّ علـي تفاصيل عدة عـن حياتها منـذ أن تخرّجـت الأولى علـى قسم اللغة العربيـة سنـة ١٩٣٣ إلى أن دخلـت القسم بنـاء على طلب أستاذها طـه حسين، رغم إلحاحها في أن تدخل كلية الطب كـي تعمل مساعـدة لأبيها الطبيب لكي تكـون طبيبة مثله، لكـنّ طـه حسين، صديـق أبيها، أصـرّ علـى أن تدخل كلية الآداب، كما أصـرّ أن يُدخلها القسم الذي يترأسه، وتبنّاها لتصبح واحدة من أنجـب تلاميذه، يرحمها الله، فما زالت عطاياها العلمية وأفعالها الإنسانية تغمرني بالودّ والمحبة والعرفان، رغم أنها توفيت منذ حوالي ربع قرن.

* عن مجلة العربي

http://www.almadapaper.net - E-mail: almada@almadapaper.net

"ألف ليلة وليلة" كما درستها الرائدة المصرية سهير القلماوي

إبراهيم العريس

ليس هناك لحد علمنا أية دراسة عربية علمية عن كتاب "ألف ليلة وليلة" سبقت الدراسة الرائدة، التي وضعتها الباحثة المصرية سهير القلماوي. وحين نتحدث عن "دراسة" هنا فإننا نشير إلى العمل العلمي المتكامل، لا إلى الكتابات الصحفية والتعليقات والانطباعات. فـ"ألف ليلة وليلة" مثلها في ذلك مثل الكثير من الشؤون الفكرية والإبداعية العربية، ولا سيما منها ما ينتمي إلى التراث ظلت في منأى عن الدراسات المعمقة طوال مئات السنين حتى جاء القرن العشرون، وبدأ الاهتمام بها يتجاوز المشاعر الوطنية العاطفية ليغوص في الأبعاد الأكاديمية أو ما يدنو منها. ولعل خير مثال على ذلك، تاريخ ابن خلدون ومقدمته اللذان كان طه حسين عند بدايات القرن العشرين من أوائل العرب الذين درسوهما بصورة جدية بعيدة من العاطفة، بعدما أمعن الغرب درساً وتمحيصاً لهما... وتطول هذه اللائحة إن نحن حاولنا الغوص فيها. والحقيقة أن طه حسين نفسه سيكون عند أواسط القرن العشرين أول من يحيي سهير القلماوي على دراستها القيمة، مشيراً إلى ريادتها في هذا المجال.

ريادة من نوع خاص

والقلماوي رائدة بالفعل، وكانت كمن يقدم على مجازفة حين اختارت "الليالي العربية" موضوعاً لنيلها شهادة الدكتوراه تحت رعاية طه حسين نفسه، لكن النتيجة أتت مشرفة إلى حد كبير، ما أطلق الدراسات التي تتناول التراث العربي من وجهات نظر جديدة وجعل بخاصة لذلك الصرح الحكائي الكبير مكتبته العربية، بعدما كان المستشرقون قد أصدروا ترجمات كثيرة لهذا العمل الجبار الذي ندر بين أدباء العالم الكبار من لم يعلن دينه له، من ماركيز إلى كونراد ومن بورغيس إلى ميشال تورنييه وعشرات غيرهم. ومن هنا أهمية الدنو الذي قامت به القلماوي من هذا العمل، من وجهة نظر عربية، حتى وإن كان نوعاً من عواطفية وطنية قد تسرب إلى دراستها، كما يفعل العديد من الكتاب العرب في مثل هذه المجالات، محاولين أن "ينقّوا" و"يطهروا" هذا النوع من الإبداعات من أية ملامح أجنبية قد تحاول الدنو منها. وهكذا مثلاً، على الرغم من كل الحكايات الصارخة في انتماءاتها الآسيوية والهندية والفارسية وحتى الصينية التي تملأ الليالي، لا يفوت القلماوي أن تؤكد أن الحكايات عربية مئة في المئة، غير معترفة على الرغم من نزعتها العلمية والليبرالية المميزة بأن الليالي هي تراث إنساني عربي التمركز والمنبع إلى حد كبير، لكنه، كالحضارة العربية نفسها عرف كيف ينهل من حضارات اختلط بها وإبداعات أتت بها شعوب أخرى لتضاف إلى التراث العربي.

والحقيقة أن دراسة سهير القلماوي، لولا هذه الشائبة الموروثة لدى الكاتبة من عقلية عربية حصرية تتناسى أصول الفارابي والغزالي والواسطي وابن سينا والبيروني والرازي وغيرهم التي تشي بها حتى أسماؤهم، لأتت عملاً متكاملاً معاصراً ذا نزعة إنسانية وأبعاد اجتماعية وتحليلات معاصرة. والحقيقة أن هذه الفضائل تميز على أية حال تلك الدراسة التي وضعتها سهير القلماوي في أواسط القرن العشرين، فأتت منصفة في حق هذه القطعة الكبيرة من التراث العربي، وفي حق الفن الحكائي ككل وأيضاً في حق هذا البعد الذي لا شك أن الأوان قد حان للتركيز عليه: البعد الكامن في التركيز على تلك الكوزموبوليتية التي طبعت التراث العربي الحقيقي خارج أية شوفينية ونزعة عواطفية تتناقض مع العلم. وهي تتناقض إلى درجة يبدو معها نافراً كل النفور ما تشدد عليه القلماوي نفسها من النقاء العربي لأعظم عمل روائي أدبي أنجز في اللغة العربية، وتحديداً باللغة العربية كجامع للحضارات والتراثات والأفكار لا كمنغلق قومجي!

ثلاث رائدات من مصر

ونعود هنا إلى سهير القلماوي نفسها لنشير إلى أنها على الرغم من المواقف الفكرية التي اختلفت فيها مع تلك الرائدة الكبيرة الأخرى المجايلة لها، كان اسمها واسم لطيفة الزيات، يتعايشان في أذهان الصفوة العربية المثقفة، خلال النصف الثاني من القرن العشرين، وفي بعض الأحيان كان ينضم إليهما اسم ثالث هو اسم عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ. ولقد كان من غريب الصدف أن ترحل الثلاث عن عالمنا في فترة من الزمن متقاربة، فتخسر مصر بموتهن ثلاث قمم فكرية وعلمية راسخة. لطيفة الزيات في يساريتها التي أودت بها إلى السجن، وعائشة عبد الرحمن في إسلامها الذي ربطها بالتراث وعراقته، وسهير القلماوي في ليبراليتها، كن علامات أساسية من علامات النهضة الفكرية التي شعّت في مصر، في وقت كانت فيه المرأة العربية لا تزال تطالب ولو بالحد الأدنى من الحقوق.

حياة أكاديمية

سهير القلماوي لم تكن الأشهر بينهن، وإن كانت الأكثر انخراطاً في الحياة الأكاديمية، هي التي كان الدكتور طه حسين يفخر بتلمذتها على يديه وبكتابها الكبير عن "ألف ليلة وليلة"، إلى درجة أنه وضع للكتاب مقدمة اعتبرت صيحة فكرية ولكن اجتماعية أيضاً.

رحلت سهير القلماوي في عام ١٩٩٧ عن ست وثمانين سنة، قضت أكثرها في العمل العلمي والكتابي. والمعروف عن د.سهير القلماوي أنها كانت واحدة من أول ثلاث فتيات التحقن بالتعليم العالي الجامعي في مصر، هي التي نالت شهادة الليسانس في الآداب من جامعة القاهرة وكانت لا تزال في الثانية والعشرين من عمرها. وستكون في عام ١٩٥٦ أول أستاذة أنثى تتولى تدريس الطلاب الذكور في الجامعة نفسها. وهذان الأمران كانا يعنيان الكثير لتلك العالمة المفكرة، التي كان دخولها الجامعة في ذلك الوقت المبكر لأسباب نضالية نسوية كما لأسباب علمية. فالحقيقة أن سهير تأثرت منذ مطلع صباها بما عرفته مصر من نضالات اجتماعية وسياسية منذ ثورة عام ١٩١٩. ومن هنا تماشى لديها، على الدوام، النضال الفكري والنضال الاجتماعي تحت مظلة العمل السياسي، الذي سوف يقودها، بعد ذلك بكثير، إلى مجلس الشعب حيث أصبحت نائبة عن منطقة حلوان عن "الحزب الوطني الديمقراطي" الحاكم، وهي كانت -على أية حال- في انتمائها إلى ذلك الحزب أمينة لليبراليتها ولتراث ثورة ١٩١٩، ولوقوفها مع السلطة باعتبارها أضمن المراجع.

أكثر من ريادة واحدة

كانت د.سهير القلماوي تفخر بعدة ريادات قيض لها أن تعيشها طوال حياتها، فهي إضافة إلى ريادتها كواحدة من أولى الطالبات الجامعيات، ثم كواحدة من أولى مدرسات جامعة القاهرة، كانت المرأة الوحيدة التي عيّنت رئيسة للمؤسسة المصرية العامة للسينما، وأول امرأة تتولى رئاسة مجلس إدارة الهيئة المصرية للكتاب ١٩٦٧-١٩٧١، وأول رئيسة لقسم الأدب العربي واللغة العربية في معهد البحوث والدراسات العربية. والحال أن القلماوي شغلت العديد من المناصب طوال حياتها العملية، ومثلت مصر في الكثير من المؤتمرات والندوات، وكان لديها مع ذلك من الوقت، ليس فقط لتتولى أمانة شؤون المرأة في الحزب الوطني الديمقراطي، ولتشغل مقعداً برلمانياً في دورتين متعاقبتين، بل كذلك لتضع العديد من الكتب، التي كان أهمها وأشهرها كتابها الرائد عن "ألف ليلة وليلة"، الذي يعتبره كثيرون من أهم ما صدر عن "الليالي العربية" حتى اليوم، بل إنه الكتاب الأم الذي سيستند إليه معظم الكتاب العرب الذين وضعوا مؤلفات عن الليالي. وهذا الكتاب وضعته سهير القلماوي في الأصل كأطروحة دكتوراه ١٩٤١، وصدر في طبعته الأولى في عام ١٩٤٣، ولم يتوقف عن الصدور في طبعات متعاقبة حتى اليوم.

كتب وموسوعات

لكن هذا الكتاب لم يكن، بالطبع، كل ما ألفته سهير القلماوي، فهي أصدرت العديد من الكتب النقدية والفكرية مثل "أحاديث جدتي"، و"العالم بين دفتي كتاب" ١٩٥٨، و"أهرام عربية" ١٩٥٩، وشاركت في تأليف كتب موسوعية مثل "حول مائدة المعرفة" ١٩٦٤، و"الموسوعة الميسرة" ١٩٦٥، وترجمت العديد من الكتب مثل "الميسرة"، كما ترجمت "حوار إيون" لأفلاطون، ومسرحية "ترويض الشرسة" لشكسبير و"رسائل صينية". ولئن كانت د.سهير القلماوي قدمت الكثير لمصر وللحياة الثقافية العربية، فإن الأطراف المعنية لم تبخل عليها بالجوائز والأوسمة، إذ نالت، ومنذ عام ١٩٤١، جائزة المجمع اللغوي المصري، كما نالت "جائزة الدولة التشجيعية"، ثم جائزة الدولة التقديرية ١٩٧٧، ووسام الاستحقاق من الطبقة الأولى.

* عن اندبندنت عربية

سهير القلماوي.. رائدة البحث في "الليالي"

يحيى بن الوليد

> ثمة ملحوظة، تبدو في غاية من الأهمية حين يتعلق الأمر بالخوض في موضوع النقد الأدبي العربي المعاصر، ومفادها أن الخطاب النقدي (في حضوره المستقل ومن منظور "عمل الناقد" في الوقت ذاته) لا ينفصل البتّة عن "المواجهة الثقافية" الشاملة والهادئة في سعيها إلى الارتقاء بالمجتمع من حال إلى حال أخرى يرى فيها الناقد ما يساير مرجعيته المعرفية وما يتماشى وميوله الثقافية وأحلامه الفكرية.

وقد تكون الملحوظة هي الفكرة ذاتها على نحو ما يصوغها الناقد المصري صبري حافظ، في كتابه "أفق الخطاب النقدي المعاصر"، قائلاً: "توشك حركة النقد الأدبي في مصر، أن تكون تسجيلاً لكل صراعات العقل المصري مع واقعه، والعالم من حوله، ومع ذاته في الوقت نفسه".

ومن ثم فإن الخطاب النقدي جزء من الخطاب الثقافي بعامة يتأثر به بقدر ما يسهم في التأثير فيه. كما أن الأدب، بدوره، يسهم في تحريك الأفق الثقافي عن طريق أنساق التخييل والتحقيق والتذويت... إلخ. ويظهر أن تشابك الخطاب النقدي مع الواقع الفكري والسياسي والإيديولوجي يبقى الأرجح والأبرز مقارنة مع باقي مكوّنات "العقل المصري" إلى حدود السبعينيات الصاعدة من القرن المنصرم، خاصة في أثناء الحديث عن "قامات" نقدية محدّدة.

وأظن أن ما ذهب إليه الأكاديمي إدوارد سعيد، في كتابه "السلطة والسياسة والثقافة"، من أن أهم ما في الثقافة العربية وباستثناء الإسلام هو الأدب (ص٥٧)... موضوع ما يزال في حاجة إلى الدرس الأكاديمي والبحث المتقصي.

وفي هذا المنظور نودّ الحديث عن "سهير القلماوي (الأستاذة، الرائدة، الناقدة، الأديبة)"، وذلك كلّه في دلالة على عنوان كتاب عنها ألفّته تلميذتها النجيبة الدكتورة الراحلة نبيلة إبراهيم (١٩٩٩). وكانت سهير القلماوي قد فارقت الحياة قبل عشرين سنة (٤ مايو/ أيار ١٩٩٧) في ظروف تكاد تكون صامتة لولا التفاتة بعض تلامذتها. ثم إن الظروف التي فارقت فيها الحياة قرينة ما يشبه النسيان الذي طاولها لمدّة وهي على قيد الحياة في دوامة مع المرض اللعين تنتظر لحظتها الأخيرة لولا تلميذها جابر عصفور الذي كان يزورها في بيتها والذي كانت له معها علاقة نادرة أثمرت تلك الأعداد الثلاثة من مجلة "فصول" (المصرية) المكرّسة لملف "ألف ليلة وليلة" خلال العام ١٩٩٤. وقد تفضّل جابر عصفور، باعتباره رئيس تحرير المجلة (وقتذاك)، بإهداء الملف لسهير القلماوي باعتبارها رائدة البحث في "الليالي"، متمنيّا لها في الوقت نفسه الشفاء العاجل.

لقد حصل لها "وعي مبكّر" بدراسة الأدب الشعبي، ما جعلها تنجز أطروحتها تحت إشراف أستاذها طه حسين الذي افتتن بدوره بشهرزاد وخصّها بكتاب "أحلام شهرزاد"، صدر في العدد الأول من سلسلة "اقرأ" في يناير/ كانون الثاني ١٩٤٣. والمؤكد أنه ما كان لها أن تشرع في ذلك إلا بعد أن طارت نحو الغرب الأوروبي لتقوم ببحث استقصائي وجرد تفصيلي لما أنجز هناك من دراسات وأبحاث غربية حول الكتاب. وحصل ذلك كلّه في زمن لم يكن من السهل فيه الطيران نحو الغرب، من قبل طالبة في مقتبل العمر، من أجل إنجاز بحث جامعي حول كتاب لا ترتاح له الثقافة السائدة سواء من ناحية مضامينه أو من ناحية مأخذ ما سجّل عليه من بساطة في اللغة والسهولة والأداء. وقد ظل الكتاب على هذه الحال، من التهميش والتناسي، على امتداد قرون، إلى أن التفت إليه المستشرقون فمنحوه حقّه من التقدير والاهتمام والدرس والبحث.

وكان للفتاة سهير القلماوي ما أرادته عندما تحقّقت لها فرصة الذهاب إلى فرنسا في بعثة لدراسة الأدب المقارن، لكن قيام الحرب العالمية الثانية أرغمها على العودة من باريس إلى مصر العام ١٩٣٩ وفي ظنها أنها أنهت البحث حول "ألف ليلة وليلة". وتروي في كتابها "ذكرى طه حسين" (الأولى ٢٨ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٧٤) الذي صدر ضمن سلسلة "أقرأ" (العدد: ٣٣٨ أكتوبر ١٩٧٤): "لما عدت بسبب قيام الحرب وقد أنهيت البحث في ظني، قلت لأستاذي: أتأذن لي بأن أقرأ عليك الرسالة، فهي كاملة" [...] أجاب العميد: "لقد درست وعرفت، وبقي أن تخرجي لنا شيئًا لا يستطيعه المستشرقون. لقد غرقوا في أصل الليالي ونحن نريد أن نغرق في الليالي نفسها". وتواصل: "على مدى عام ونصف كنت أتردّد على طه حسين في بيته مرتين في الأسبوع أطلعه على عملي أوّلا بأوّل، وأستمع إلى إرشاداته، وأقرأ في مكتبته، ويدلني على مراجع ومجلات، أقرأ في مكتبة الجامعة ودار الكتب بدأب ومثابرة". هكذا إلى أن ناقشت الرسالة في ٥ مايو/ أيار ١٩٤١، وهو اليوم نفسه الذي كان فيه العميد قد ناقش من قبل أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه.

فصاحب "أحلام شهرزاد"، علاوة على كون أنه كان من أوائل الذين أفادوا من كبار المستشرقين في الثقافة العربية الحديثة، وعلاوة على كون أنه كان ينظر إلى الغرب نظرة موحّدة لا تميّز بين وجهه الحضاري ووجهه الاستعماري، كان "متحفّظا" على الاستشراق في حال "الليالي"، كما كان حريصًا على أن تراعي سهير القلماوي ذوقها. ولا ينبغي أن تفوتنا الإشارة إلى أن صاحبة "أحاديث عن جدتي" كانت تنوي البحث في "الليالي" في رسالة الماجستير، غير أن العميد صدّها عن هذا... ووجّهها، وهو خارج الجامعة، إلى دراسة "أدب الخوارج في العصر الأموي".

كانت سهير القلماوي استثناءً بالنظر للعقبات الثقافية المفروضة وبالنظر للإكراهات التاريخية المطروحة وقتذاك. فهي لم تسافر في بعثة لدراسة الأدب المقارن وكتابة البحث عن "الليالي" إلا بعد صعوبات شاقة أو بعد "قصة طويلة" كما تسميها. وهناك في فرنسا وإنكلترا التقت بالأساتذة المستشرقين واختلفت إلى دروسهم. ومن ثمّ كانت مساهمتها المبكّرة حول "ألف ليلة وليلة" التي ستصدر عن دار المعارف المصرية أوّل مرة في مستهل عام ١٩٤٣. وقد نال الكتاب شهرة واسعة النطاق، كما أن تقديم طه حسين له لفت الأنظار إليه أكثر.

وكان من المفهوم أن تعرض الباحثة لرحلة الكتاب إلى الغرب بدءًا من ترجمة سفير فرنسا في تركيا أنطوان غالان، للكتاب بطبعاته المتعدّدة وتعديلاتها اللاحقة مع ذكر الأسماء التي ساهمت في الطبعات. وهي الترجمة التي تمّ اعتمادها في ترجمة الكتاب إلى الإنكليزية والألمانية والإيطالية والهولندية والروسية والسويدية والبرتغالية والرومانية... ما مكّن نصوص "الليالي" من مواصلة رحلتها المتجدّدة في ثقافات مغايرة ومجتمعات مختلفة وحضارات متنوّعة... إلخ. وكما أوضحت نبيلة إبراهيم، في تقديمها لطبعة "الهيئة العامة لقصور الثقافة" لكتاب أستاذتها (٢٠١٠)، يعدّ الباب الأوّل من الكتاب المعنون بـ"ألف ليلة وليلة في الشرق والغرب" المكرّس لأهمّ أبحاث المستشرقين من الأوروبيين ومن غير الأوروبيين من الذين خاضوا في موضوع أصل "الليالي"، مع تفنيد الباحثة لكل رأي على حدة، من أهم الأبحاث التي كتبت عن حكايات "ألف ليلة وليلة". وتزيد تلميذة سهير القلماوي أن الباب/ البحث لا يزال يتمتع بالجدّة والعمق حتى بعد مرور ما يربو على سبعين عاما على كتابته. وترجع أهمية البحث إلى ما ينمّ عنه من "عمل استقصائي مرهق".

وقد خلصت سهير القلماوي، في كتابها الرائد وغير المسبوق، إلى أن كتاب "الليالي" من "صميم القصص الشعبي العربي" بالرغم من تضمّنه لبعض القصص الهندية والفارسية؛ ذلك أن "النوع القصصي" ليس غريبًا عن الذهنية العربية. كما خلصت إلى أن صيغته الأدبية الشعبية اكتملت قيمتها التاريخية في مصر بعد أن تشبّعت بأجواء الحياة المصرية الشعبية ولغة الشخصية المصرية. وكما أن الناشر العربي للنسخة المصرية المطبوعة في بولاق القاهرة سنة ١٨٣٤ (وهي النسخة الثالثة للكتاب بعد نسخة كالكوتا الهندية سنة ١٨١٤ ونسخة ماكسميليان حابيشت الألمانية سنة ١٨٢٤)، كان على وعي بفكرة "تحوير اللغة" حتى تكتسب "الليالي" قيمة أدبية أعلى من النسخة الأصلية كما تناقش فاطمة المرنيسي في كتابها "شهرزاد ترحل إلى الغرب".

لقد لمّح كتاب سهير القلماوي، في مجموعه، إلى بداية طريق مغاير وصعب بالنظر لما خاضت فيه من مواضيع ذات الصلة بـ"التثاقف" من خلال الأصل الهندي والفارسي. إضافة إلى ما سيرافق الأصل العربي، بعد مرحلة الرواية، من تداخل لتقاليد "الشفاهية" و"الكتابية" في لحظات التدوين الأولى وعلى النحو الذي أفضى من منظور اختلاف ثقافة العامة وذوقها في كل بلد على حدة إلى نسخة مصرية وأخرى شامية وثالثة بغدادية، وصولا إلى جرد موضوعات الخوارق والموضوعات الدينية والتاريخية... وحصر أنماط المرأة من "عالمة" وجارية (حتى وإن كانت ملكة) وعجوز داهية... وغير ذلك من المراكز الدلالية التي يتشكّل من مجموعها مضمون الليالي. ومن هذه الناحية لقد انطوى عمل سهير القلماوي، كما يلخص جابر عصفور، على الملامح المنهجية الغالبة على طرائق أساتذتها الذين أخذت عنهم في ذلك الزمان، والذين تعلمت منهم إجراءات المنهج التاريخي وآليات التحليل الفيلولوجي وعمليات الدراسة المقارنة وكيفيات التحليل النصي الذي يركز على وحدة الموضوعات (من مفتتح ملف "ألف ليلة وليلة"/ "فصول"، شتاء ١٩٩٤). سترتاد سهير القلماوي مجالاً على قدر من التعميم، ولا غرابة أن يواصل جابر عصفور في مفتتح الملف الموالي ("فصول"، ربيع صيف ١٩٩٤) قائلا: "وما كان يشار إليه في سطر واحد أحيانًا، في أطروحة سهير القلماوي أصبح موضوعًا لأطروحة دكتوراه. وما كانت تعبُر عليه سهير القلماوي عبورًا سريعًا أصبح منطقة جذب للكثير من الأعين الفاحصة في الشرق والغرب".

وكان العميد بدوره على وعي بالفكرة (وقتذاك)، إذ قال لها ذات يوم: "ألا تصدرين كتابًا آخر عن ألف ليلة وليلة؟"، فأجابته بسرعة: "لا أريد أن أكون كبعض الزملاء يحملون رسالة الدكتوراه كعربة (الزمن) يسرحون بها عصرًا، ويبيعون للمارة كل يوم حفنة منه... سأؤلف كتبًا جديدة بعيدة عن ألف ليلة وليلة" ("ذكرى طه حسين"، ص١٧ ١٨). من الجلي أن الكلام لا يخلو من أخلاق عالية هي أخلاق المعرفة بأكثر من معنى، بخاصة ذلك الصنف من المعرفة الذي يقي من التكرار على حساب الاجتهاد ومن التوليف على حساب التأليف ومن الثرثرة على حساب الإبداع.

أهمية الدراسة، ومن خلالها صاحبتها، أنها سترتاد حقلاً لم يكن قد مسّه حرث أو قلب. سوف تبحث في الوجه الآخر للمرأة التي لوّى بها القمع في سياق نصوص الليالي وعلاقات المدينة الصاعدة. وهو الوجه الآخر لما لازم البحّاثة الشابة سهير القلماوي نفسها التي ستجد صعوبة قصوى في إقناع الأسرة بالسفر إلى أوروبا. أسرتها التي كانت نموذجًا للمجتمع البطريركي بالرغم من أب لها كان يعمل طبيبًا. ولذلك لم يكن من مخرج للذهابٍ إلى خارج مصر إلا عبر الزواج من الدكتور يحيى الخشاب الذي تقدّم للزواج منها وهي طالبة في كلية الآداب، وكان العميد هو من أشّر على هذا الزواج.

لم ينظر إلى المرأة وقتذاك نظرة تقرّ بقدراتها على مستوى البحث وعلى مستوى المساهمة في تنوير المجتمع. التنوير الذي لا يمكن أن تتحقق خطواته الأولى، إلا بإعطاء الحرية للمرأة وجعلها تركب قطار المغامرة في دلالة على مظهر من مظاهر التلمذة على يد طه حسين التي تقتضي ضرورة الاهتمام بالنقد الغربي، وبما يقتضيه من ترجمة وتعريف مكمل لهذا الاهتمام. وبالرغم من جميع الخطوات التي قطعتها والمساهمات التي ساهمت بها في مجالات الكتابة في الأدب والمجلس الأعلى للفنون والعلوم الاجتماعية الذي سيختزل اسمه في المجلس الأعلى للثقافة، وفي الإشراف على الرسائل العلمية والمساهمة في الصحف والأحاديث في الإذاعة والتلفزيون... فإنها ظلت تشعر بأنها تلميذة في مدرسة طه حسين.

وبما أن الحيّز لا يسمح بمزيد من الكلام عن سهير القلماوي، فإن بحثها في الليالي لا يزال مرجعًا أساسيًا وضروريًا لأي باحثة أو باحث في الليالي، وإن ما قالته في كتابها "النقد الأدبي" عن النص الذي يظل "كالبلد العجيب الذي نودّ زيارته"، وعن الناقد "كالدليل لهذا البلد العجيب"... هو ما ينطبق على علاقتها بالليالي. ستظل، من موقع المعرفة المنهجية المتجدّدة، "دليلا" لهذا البلد العجيب الذي ما انفكّ يتزايد أهمية واستقبالاً وبحثًا... مع تقدّم القرون.

سهير القلماوي.. إبنة مؤامرة طه حسين

سـنـاء أمـيـن

" بدأت حياتي بتحد معجز" تقول الكاتبة والنسوية المصرية سهير القلماوي (١٩١١-١٩٩٧) في مقابلة أجراها معها التلفزيون المصري مطلع الثمانينيات. كانت الشابة لا تجيد من اللغة العربية الفصحى إلا النزر القليل، لكن القدر وضعها في طريق المفكر طه حسين الذي أصبحت تلميذته في كلية آداب اللغة العربية في جامعة القاهرة (جامعة فؤاد الأول سابقاً)، لتكون الوحيدة بين ١٤ طالباً من الذكور وقتها.

وحين كلّفها حسين بأن تكتب مقالاً عن طرفة بن العبد، كتبته التلميذة بالإنكليزية ثم ترجمته إلى العربية لأنها لم تكن قادرة على التعبير كما تفعل حين تكتب بالإنكليزية والفرنسية.

تنحدر القلماوي، التي تحل ذكرى ميلادها اليوم، من عائلة من أصول مختلطة، كردية شركسية، ومتحرّرة من حيث المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة في التعليم والحقوق، لكنها أيضاً محافظة لجهة تمسكها بالقيم الاجتماعية الإيجابية التي لا تنتهك حقوق المرأة.

عُرفت هذه العائلة بتعليم الفتيات إلى مراحل متقدمة وبرفض تزويجهن قبل إتمام العشرين، غير أن القلماوي تقول إنها عانت كثيرا من قسوة والدتها وإصرارها على "الترتيب والأصول والنظام الشديد"، لذلك حين أصبحت أمّاً ثارت على والدتها بأن أعطت ولَديها كامل الحرية، وتقول: "اتفقت مع زوجي أن لا نقول لولدينا لا، إلا إذا كنا مضطرين فعلاً".

من هذه القيم والأجواء خرجت عقلية صاحبة "أستاذي طه حسين" وأضيفت إليها تجربة التحصيل الأكاديمي على يد مفكرين متنورين. من هنا حاولت القلماوي نقل هذه القيم التنويرية لجهة حقوق المرأة إلى المجتمع المصري الأكبر.

أحد أحلام القلماوي التي لم تتمكن من تحقيقها أن تصدر مجلة سياسية يومية؛ لكنها تقول: "أدركت أنني لن أستطيع الخوض في هذا المشروع"، مضيفة بأن الحياة علمتها أن التحدي يخلق الشخصية، لكنها تؤكد أن الفشل أيضاً يمكنه أن يفعل ذلك إذا أصر المرء على تبديده والنهوض منه، وتصفه بأنه "شعور مؤلم ومؤسف تفاديته. حين أخفقت بدأت شيئاً جديداً على الفور ولم أكن أترك نفسي للتفكير في أنني أخفقت في هذه المسألة أو تلك".

تحمل القلماوي عدة ألقاب ريادية؛ فهي أول مصرية تتحصل على درجتي الماجستير والدكتوراه، وأول محاضرة في الجامعة، وأول رئيس قسم فيها، كما أسهمتَ في إقامة أول معرض دولي للكتاب بالقاهرة سنة ١٩٦٩، عندما كانت تترأس "المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر" بين عامي ١٩٦٧ و١٩٧١.

كانت صاحبة "أهرامات عربية" أستاذة لنخبة من الكتّاب المصريين، من أمثال صلاح عبد الصبور وعبد المنعم تليمة ورجاء النقاش وجابر عصفور، عملت في الإذاعة، وبعد شهرين من رحيل جمال عبد الناصر عام ١٩٧٠، كتبت مقالاً مطولاً بعنوان "الثورة الناصرية في الثقافة"، أصبحت نائبا في البرلمان عام ١٩٧٩، ونالت الكثير من الجوائز التقديرية.

للقلماوي ما يزيد عن مئة منشور، ما بين دراسات ونقد وكتابات أدبية وتراجم، لعلّ أبرزها بحثها الذي نالت من خلاله درجة الدكتوراه عن "ألف ليلة وليلة" من تقديم طه حسين وأطروحتها في الماجستير حول "أدب الخوارج" التي أصدرتها في كتاب، و"في النقد الأدبي"، و"العالم بين دفتي كتاب".

فيما اعتُبر كتابها "أحاديث جدتي" أول عمل من نوعه تنشره امرأة في مصر، فمن خلاله قامت بتحليل الدور الاجتماعي للإناث باعتباره الحافظ والمجدد لتأريخ المجتمع عبر السرد الشفوي.

ورغم كل إنجازات القلماوي، يبدو من الصعب أن نطلق عليها ثائرة في مجال حقوق النساء، فهي ابنة بيئتها المتنورة التي لقيت الدعم من العائلة، وقد حالفها الحظ مرة أخرى حين وصلت إلى الجامعة في لحظة "المؤامرة الخطيرة جداً والسرية" التي وصفها طه حسين حين كشف عن اتفاق مجموعة من الجامعيّين على "أن يخدعوا الحكومة وأن يختلسوا منها حقاً ولا يشاوروها فيه، وهو الإذن للفتيات بالتعليم العالي". قال صاحب "الأيام" ذلك أثناء تخريج القلماوي (مع ثلاث آخريات التحقن بعدها) من كلية الآداب.

قال طه حسين لتلميذته سهير القلماوي: يا سهيرمزقي بحثك

د. كريم الوائلي

حين دلفت الى عالم البحث والدراسة في جامعة القاهرة، كنت حينها اعد نفسي امهر اقراني من الطلاب والطالبات، خليط، مصريون، وعراقيون، وجزائريون، وكويتيون، وشاء لي أن أسجل بحثي للماجستير بعنوان (نقد القصة القصيرة في العراق) وأخذت أشرع بكتابة البحث مع استاذي الناقد المعروف الدكتور جابر عصفور، وقد اشترط علي قراءات عديدة وترجمة فصول من بعض المراجع الانجليزية، ثم سلمته الفصل الأول، ثم كان اللقاء، فلاحظت أن ملاحظات استاذي كثيرة، وأنه كلمني بقدر من الحدة والحزم، فشعرت بحزن شديد، أدرك أستاذي ذلك مني، فقال لي، اسمع يا كريم: كنتُ الأول على قسم اللغة العربية في جامعة القاهرة، وسجلت بحثي في الصورة الشعرية عند الاحيائيين، وكانت تشرف على البحث الدكتورة سهير القلماوي، وكنت طموحا ومزهوا كما تبدو أنت الآن بقدراتي العلمية، وسرعان ما انجزت الفصل الأول، وسلمته لها، وكانت آنذاك رئيسة الهيئة المصرية العامة للكتاب، وطلبت مني أن أعود اليها بعد اسبوع، كي توضح لي موقفها من الفصل الذي فرغت من كتابته بشهر أو يزيد، ولما ذهبت اليها، وبمجرد دخولي مكتبها، وقفت بغضب شديد، وصرخت بي بقسوة وعنف، وقالت: شوف يا ولد، خذ هذه الورقة واذهب الى مكتبة الجامعة الامريكية، واتصل بمدام فلانه، وخذ المراجع الانجليزية، وبعد أن تفرغ من ترجمتها عليك أن تعود الي. أخذ يشرح الدكتور جابر كيف خرج حزينا ثم سار ماشيا على قدميه الى المكتبة الامريكية، وكانت دمعة أو أكثر قد طفرت من عينيه، وحين وصل الى المدام أصرت وهي المصرية على التحدث معه باللغة الانجليزية، وكل الذي فهمه أنه استلم الكتب، ثم خرج بها بحزن أشد. بقي سنة كاملة يترجم ويتعلم، ثم ذهب الى استاذته وأخبرها أنه فرغ من ترجمة المراجع، عندها أخرجت له الفصل الذي كتبه، ثم سألته ماذا ستفعل بهذا الفصل؟ رد عليها: سأمزقه. ثم قالت له اسمع يا ولدي: أحكي لك حكايتي مع استاذي الدكتور طه حسين، فلقد ذهبت اليه وقد كتبت الرسالة كاملة، وأخذها مني، وحدد لي موعدا لإبداء ملاحظاته عليها، وحين ذهبت اليه في الموعد المحدد، وجدته قد وضع رسالتي على المنضدة، وقال لي بصوته الصارم ولهجته القاسية: يا سهير خذي رسالتك.. مزقيها!! وشرعت بتمزيقها، ثم قال اذهبي واكتبي من جديد!!

قهقه الدكتور جابر، وقهقت معه، وواصل حديثه: لقد قالت الدكتورة سهير القلماوي الا ترى يا بني أنكم تلاميذ آخر زمن!! (رحمهم الله جميعا).

جوائز الدولة

لا عالم ولا أديب ولا مؤرخ!

الدولة تبحث بين مائة مفكر.. فلا تجد إلا نصف أديبة ونصف أديب!

لا يوجد في مصر علماء للتاريخ أو الآثار..
ولا يوجد فيها علماء بالمعنى المفهوم..
ولا يوجد فيها واحد فقط يمكنه أن يستحق جائزة الدولة في هذه العلوم لعام ١٩٥٥..

أستاذي.. ولكن!

manarat

www.almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

المدى

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
غادة العاملي
رفعة عبد الرزاق

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون

الدكتورة سهير القلماوي كما عرفتها

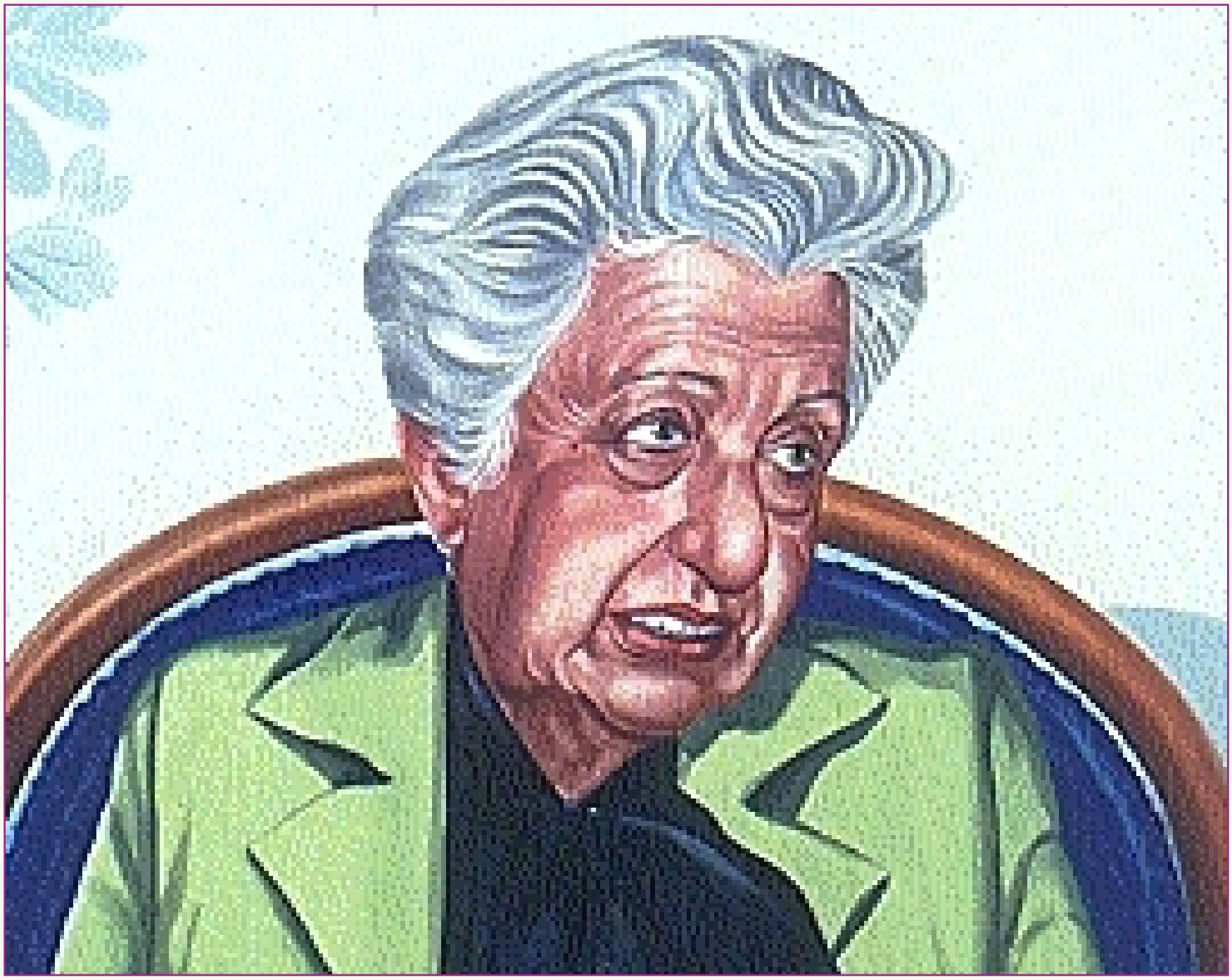

نـوال الـسـعـداوي

كنت طفلة في المدرسة الابتدائية حين سمعت صوتها في الراديـو، صـوت قـوي ممتلـئ، يشبه صـوت أم كلثـوم، إلا أنهـا لا تغنـي، لكـن تتحـدث في الأدب والثقافة وتعليم المرأة.

كان الراديـو في الأربعينيـات جهـازًا سحريًـا (مثل الإنترنـت اليـوم)، والأصـوات تخـرج منـه شبـه سحريـة، إلا تلـك الأحاديـث عـن الطبـخ والتدبـير المنـزلي، كنت أهـرب منهـا إلى الأدب والفـن. أحرك مفاتيـح الراديو لأسمع أم كلثوم وطه حسين وسهير القلمـاوي. وقـال أبي: إنهـا تلميذة طـه حسين، هو الـذي شجعهـا، وهـي أول امـرأة مصريـة تدخـل الجامعة.

حـين دخلت الجامعة سألتُ عنهـا، قالوا إنها في كلية الآداب، وكنـت أنا في كلية الطب، لم أعرف الطريق إليهـا، كانـت أستـاذة كبـيرة معروفـة وأنـا في أول الشبـاب، تخرجت طبيبة وبدأت أكتب الأدب، نشرت بعـض القصـص القصـيرة، وأول روايـة طويلـة "مذكـرات طبيبة" ظهرت على حلقات في مجلة "روز اليوسـف". في يـوم دقّ جرس التليفـون في بيتي، جـاءني الصـوت القـوي الممتلـئ الـذي سمعتـه في الراديو منذ عشرين عامًا:

أنا سهير القلماوي، قـرأت روايتك في مجلة "روزا" وأعجبتني، واصلي الكتابة يا نوال ...

كانـت لحظة في حياتـي لا أنساهـا، كان صوتها هو الوحيـد بين النساء المعروفـات حينئذ الذي جاءني، كلماتها شجعتني علـى الكتابة وملأتنّي بالأمل. كان أبي يقـول دائمًـا: "كلما ارتفـع الإنسـان تواضع."

كانت سهـير القلمـاوي في قمتها الأدبيـة، وكنت أنا في أول حياتـي، رفعـتْ سماعة التليفـون وكلمتني، لم تستغـرق المكالمة إلا دقيقة أو نصف دقيقة، إلا أنها بقيت في ذاكرتي أربعين عامًا.

إن سهـير القلمـاوي مثـل طه حسـين، أحـد الأعمدة الثقافيـة والأدبية في بلادنا، يجـب ألا تندثرَ أعمالها بوفاتها، فما أسهل أن تندثر الرائدات من النساء.

إن الرواد من الرجال أمثال طه حسين يجدون بعض الاهتمـام مـن الحركـة الثقافية والأدبيـة في بلادنا؛ فهي حركة يغلب عليها الرجال بحكم التاريخ والقوة السياسيـة، ولا تـزال الحركـة الثقافيـة النسائيـة هامشيـة، تغلب عليها الصراعات الحزبية، تميل إلى التضحيـة بقضيـة المرأة من أجـل القضايا الأخرى؛ لهـذا السبب اندثـرت أعمال الكثيرات مـن الرائدات المصريات، في حياتهن وبعد موتهن.

سهـير القلمـاوي لهـا مؤلفـات وكتابـات تستحـق الاهتمام، سواء اختلفنا معها أو اتفقنا، إنها جزء من التاريخ لا بد أن تعرفه الأجيال المتعاقبة.

كانت سهير القلمـاوي صديقتي، وكنت أختلف معها في الـرأي حـول أمور كثـيرة، إلا أن هـذا الاختلاف هـو أساس التطور والنمـو والإبداع، وهـو أساس الصداقـات الإنسانية الأدبية القوية، هذه الصداقات تنشـأ بـين الأنداد ذوي الـرأي، وليس بـين الإمّعات التابعـين للآخريـن. وكانت سهـير القلماوي تحترم الـرأي المخالف؛ لأنهـا كانت تحترم رأيهـا ونفسها.

لم تتأرجح سهير القلمـاوي بين التيارات المسيطرة، حافظت علـى مبادئها، وإن دخلـت في نزاع مع ذوي السلطـة، ولم تكن مثـل غيرها الذيـن عاشوا في كل العهود وتربعوا على عرش الثقافة والأدب والمرأة.

هـل يمكـن لـوزارات الثقافـة والتعليم والإعـلام أن تبـذل الجهـود لتعريف الشبـاب والشابات في مصر بأعمال سهير القلماوي؟! لها كتاب بعنوان "أحاديث جدتي"، يمكن أن يدخل المدارس ويقرؤه الأطفال من الأولاد والبنات، ربما تتشجع البنات المصريات على مقاومة الـردة الثقافية التي تفرضـ عليهن الاختفاء وراء الخمار أو جدران البيت والمطبخ.

لا يزال تاريخ سهير القلماوي وأعمالها مجهولة عند الأجيـال الجديدة في بلادنا، أخشـى أن تندثر تمامًا بوفاتهـا كما حدث لنساء غيرهـا؛ فالضربات لا تزال توجَّـه إلى الحركة النسائية تحـت أسماء ومسميات دينيـة أو سياسيـة، ولا يـزال عـدد المؤرِّخـات مـن النسـاء قليـلًا يُعَد علـى الأصابع، تنشغـل معظمهن بالكتابة عن الرواد من الرجال.

فهـل يمكـن أن تتبنـى الحركـة النسائيـة المصريـة مشروعًـا جديدًا لإحياء تاريـخ الرائدات المصريات، ومنهن الدكتور سهير القلماوي؟!

أرجو ذلك! لا بد!

• جريدة الأهرام، ٧ مايو ١٩٩٧